

الفصل الرابع
العصر العباسي الرابع
عصر السلاجقة وسقوط الخلافة العباسية
٤٤٧ - ٦٥٦ هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م

- ١ - ظهور السلاجقة وقيام دولتهم
- ٢ - دخول السلاجقة بغداد
- ٣ - سياسة السلاجقة مع الخلفاء العباسيين
- ٤ - زوال دولة سلاجقة العراق
- ٥ - سقوط الخلافة العباسية.

obeikandi.com

العصر العباسي الرابع

٤٤٧ - ٦٥٦هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨م

١ - ظهور السلاجقة وقيام دولتهم:

عاشت في تركستان مجموعة من القبائل التركية المعروفة باسم العز، وفي سنة ٣٧٥ اضطرت هذه القبائل على الرحيل عن وطنها إلى بلاد ما وراء النهر، بسبب ظروف اقتصادية آلت بها، دفعتها إلى الهجرة.

قاد هذه القبائل رحلتها إلى العالم الإسلامي زعيم يدعى سيلجوق بن دقاق، غلب اسمه عليها فصارت تدعى بالسلاجقة.

اعتنق السلاجقة الإسلام على المذهب السني، وقدوا حلفا مع السامانيين أصحاب بلاد ما وراء النهر، فسمحوا لهم بالاستقلال قرب بخارى وسمرقند.

انتعشت أحوال السلاجقة، وبخاصة بعد زوال الدولة السامانية في سنة ٣٨٩ وصار لهم جيش وافر العدة، مما أثار حفيظة الخانيين، وسعوا إلى الإيقاع بينهم وبين السلطان محمود صاحب غزنة.

كان محمود بن سيكاتكين الغزنوي قد أنشأ لنفسه دولة كبيرة ضمت خراسان وما وراء النهر، وغزا الهند اثنا عشر مرة، فلقب بالغازي، ثم أنعم الخليفة العباسي عليه بلقب يمين الدولة.

انصاع محمود الغزنوي لدسائس الخانيين واحتال على السلاجقة فأرسل إلى زعيمهم إسرائيل سنة ٤١٥ يعرض عليه أن يتعاونوا سويا واقترحا أن يلتقيا في مكان قرب نهر جيحون، وكذلك تمكن السلطان محمود من القبض على إسرائيل وعدد من وجوه قومه وألقى به في إحدى قلاع الهند، فظل بها إلى أن مات سنة ٤٢٢هـ.

خلف ميكائيل أخاه إسرائيل فى زعامة السلاجقة وسعى إلى أن بتدبر أمره مع السلطان محمود، فبعث إليه يلتمس الرحيل بقومه إلى خراسان، والإقامة بين نساو باورد، وقال "إن مقامنا أصبح يضيق بنا، وإن مراعيانا أصبحت لا تقى بحاجة مواشيننا" ومع أن أرسلان وليتوس بعث إلى السلطان محمود يحذره من غبت الانصياع لطلب السلاجقة، إلا أنه أجابهم لما طلبوه.

يشكل انتقال السلاجقة إلى خراسان مرحلة جديدة فى تاريخهم فقد أخذوا فى تدعيم قوتهم ويتحينون الفرصة للانتقام من السلطان، وتهيأت لهم هذه الفرصة فى سنة ٤١٨، فوقع الحرب بينهم وبين والى طوس، وتحقق النصر لهم فى البداية على أن مقدم السلطان بنفسه حول نصرهم إلى هزيمة.

كان لميكائيل ولدان هما جغرى بك أبو سليمان داود، تغرل بك أبو طالب محمد، وكان فارسين مقدامين، استطاع أن يجمعهما حولهما القبائل، وانتهاز فرصة موت السلطان محمود فى سنة ٤٢١، وأخذ ينشران نفوذهما فى أنحاء خراسان.

لما اطمئن السلاجقة إلى قوتهم طلبوا من والى نيسابور بأن يأذن لهم بالإضافة بالقرب منها، فرفض الوالى واستعان بالسلطان مسعود بن محمود الذى أسرع إلى نيسابور فى سنة ٤٢٦ لدفع خطرهم فالتقى بهم قرب نسى وانهمزم السلاجقة فى البداية، لكنهم انتصروا فى النهاية انتصارا باهرا، واضطر مسعود إلى مصالحتهم، وترك لهم المنطقة ورحل إلى الهند.

قوى أمر السلاجقة بعد هذا الصلح، وحمل زعمائهم ألقاب الدهاقين ويقول الراوندى "اشتد باسمهم وازدادت قوتهم ولاحت عليهم إمارات الملك وعلامات الحكم ومخايل السلطان".

عاود مسعود مهاجمته السلاجقة فى سنة ٤٢٩ فعاودته الهزيمة مرة أخرى، وأضحى السلاجقة أكبر قوة فى خراسان.

شعر السلاجقة بأن الوقت قد حان لإعلان قيام دولتهم فوحدوا قيادتهم فى يدى طغرل بك الذى جلس على عرش مسعود فى نيسابور، وباشر مهامه كسلطان

وإذ كان الخليفة العباسي لم يعترف به إلا سنة ٤٣٢ إلا أن هذه الاعتراف لا يعدوا كونه مسألة شكلية فحسب.

عندما ترامت هذه الأخبار على مسعود توجه إليهم مرة ثانية وأخيرة حاقت به الهزيمة في دندانقان سنة ٤٣١، وكانت هزيمة ساحقة، انقلب بعدها إلى غزنة مدحورا، وغنم السلاجقة مغانم وفيرة ورجع طغرلبك إلى نيسابور منصورا.

٢ - دخول السلاجقة بغداد:

قوى أمر السلاجقة بعد موقعة دندانقان وجعل طغرلبك عاصمته في الري، وسعى إلى أن يحصل على اعتراف الخليفة العباسي به فأرسل إليه في سنة ٤٣٢ يظهر ولاية، وحبه للجهاد وبين له غدر السلطان محمود بعمه إسرائيل، وكيف أن الغزنويين انصرفوا عن الجهاد إلى اللهو وعدم مراعاة شئون دينهم.

قبل أن يصل إلى طغرلبك رد الخليفة القائم كان قد تم له الاستيلاء على جرجان وتبرستان من الغوريين، كما فتح خوارزم، فبما وصله رسول الخليفة إلى بغداد، اعتذر طغرلبك عن تربية الدعوة حتى يتم له فتح سائر أقاليم إيران فتمكن من بسط نفوذه على قزوین وهمزان وأذربيجان وأصبهان، ثم دخل تبريز في سنة ٤٤٦ ومضى يتطلع إلى العراق.

كان أبو كالجار الملقب بعماد الدولة قد استقرت إليه أمور العراق في سنة ٤٣٥ واعتزته المخاوف من تقدم السلاجقة في الهضبة الإيرانية، فسعى إلى مصالحة طغرلبك، حتى يأمن شره واتفق معه في سنة ٤٣٩ على أن يتزوج طغرلبك بابنته ويتزوج أبو منصور بن عماد الدولة بابنة الملك داود أخى طغرلبك.

كان المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله الشيرازي نشر الدعوة للفاطميين بفارس والعراق مما أثر مخاوف الخليفة القائم، فبعث إلى عماد الدولة يطلب منه تسليمه هبة الله ويتوعده الاستعانة بالسلاجقة، إذا لم يستجيب لمطلبه فاضطر هبة الله للرحيل إلى مصر في سنة ٤٣٨.

وجدت الدعوة الفاطمية تأييدا من بعض القادة الأتراك، وبخاصة أبي الحارث أرسلان البساسيري، وعندما تنبه الخليفة القائم بذلك فى سنة ٤٤٦ أرسل إلى الملك الرحيل - الذى خلف أباه عماد الدولة - يطلب منه إبعاد البساسيرى من بغداد ولم يجد البساسيرى إلا أن يغادر المدينة إلى الحلة، حيث نزل على أميرها دابيس بن مزيد وظل مقيما بها، حتى اضطر إلى المسير إلى الرحبة بعد أن دخل طغرلبيك بغداد.

لم تكن أحوال العراق بخافية عن طغرلبيك، فقد اعتزم انتهاز الفرصة وأظهر فى سنة ٤٤٧ إنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى مصر وإزالة المستنصر العلوى صاحبها، وأرسل إلى الخليفة يستأذنه فى دخول بغداد، فأذن له وأمر بإقامة الخطبة له على منابرها.

أظهر العامة فى المدينة تذرهم من دخول طغرلبيك وقتلوا بعض جنوده الأمر الذى أدى إلى استياء طغرلبيك، واستدعى الملك الرحيم، واتهمه بتدبير ما حدث وأرسله إلى قلعة قرب الرى، فظل معتقلا بها ثلاث سنوات حتى مات.

لما علم الخليفة بما حل بالملك البويه بعث إلى طغرلبيك يستنكر ما حدث ويقول "أنهم إنما خرجوا إليك بأمرى وأمانى، فإن أطلقتهم، وإلا فأنا أفارق بغداد" فاضطر طغرلبيك إلى إطلاق بعضهم، فرحل كثير منهم إلى البساسيرى والتفوا حوله.

طال مقام السلاجقة ببغداد حتى ضج منهم أهلها فغادروها فى سنة ٤٤٨ بعد أقاموا سنة لم يحظ طغرلبيك خلالها بمقابلة الخليفة.

عاد هبة الله إلى العراق ومعه مدد من مصر، ونجح فى استمالة بعض أمراء العرب إلى دعوة الخليفة المستنصر بالله فأقام له الخطبة بالموصل، ولما تأكد من نجاحه رجع أدراجه إلى مصر.

خاف طغرلبيك من تفاقم الأوضاع وسارع بدخول بغداد مرة ثانية فى سنة

٤٤٩ ، وقابل الخليفة القائم الذى خلع عليه ودعاه بملك الشرق والمغرب ، وخاطبه على لسان وزيره "إن أمير المؤمنين شاكر بن سعيد حامد لفعلك مستأنس لقربك ، وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعات عبادته ، فاتق الله فيما ولاك ، واعرف نعمته عليك فى ذلك ، واجتهد فى نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية " .

لم ينعم طغرل بك بالاستقرار ، إذ خرج عليه أخوه إبراهيم ينال الذى كاتب البساسيرى ، وأظهر رغبته أن يدعوا للخليفة الفاطمى ، فاضطر طغرل بك لأن يفارق بغداد وتعقب البساسيرى وأنصاره إلى نصيبين ، ثم استعان بابن أخيه ألب أرسلان ، واستطاع فى سنة ٤٥١ أن ينتصر على إبراهيم ينال بالقرب من الرى ، وأسرهم ثم قتلهم .

انتهز البساسيرى فرصة انتقال طغرل بك بثورة أخيه ، وزحف إلى بغداد فى أربعمائة فارس حاملا الرايات المستنصرية التى كتب عليها "الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين" وتمكن فى سنة ٤٥٠ من دخول المدينة ، وأقام الخطبة للفاطميين فى جامع المنصور وضرب السكة باسمهم ، وأرغم القائم على أن يكتب إقرارا بأنه لا حق لبني العباس فى الخلافة ، وأبعده إلى حديثه عادة .

عندما بلغت هذه الأنباء مصر ، أقيمت بها احتفالات ووقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة المستنصر تنشد هذين البيتين :

يابنى العباس صدوا ملك الأمر معد

ملككم كان معارا والعواري تسترد

فأعجب المستنصر بغنائها ، واقطعها أرضا ما زالت تعرف إلى اليوم بأرض الطالبة .

عول طغرل بك على العودة إلى العراق بعد أن قضى على ثورة أخيه فلما اقترب من بغداد أدرك البساسيرى أن لا طاقة له به ، فغادرها إلى الكوفة فى سنة

٤٥١ ولم يلبث أن اعتزم الخفية القائم العودة إلى بغداد، فخرج طغرل بك لاستقباله عند وصول النهروان، وقبل الأرض بين يديه، واعتذر له عن تأخره بسبب فتنة أخيه، وأعلن عزمه على مطاردة البساسيري والسير إلى الشام ثم مصر.

بعد قليل تمت هزيمة البساسيري وقتله واستقر الأمر للسلاجقة بالعراق.

٣ - سياسة السلاجقة مع الخلفاء العباسيين:

كان دخول السلاجقة بغداد في سنة ٤٤٧ بداية عهد جديد للخلافة العباسية، ومع أنهم أبعدوا خطر الفاطميين إلا أن أحوال الخلافة لم تختلف كثيرا عما كانت عليه في أيام البويهيين، بل أنهم عاملوا العراق على أنه إقليم من أقاليم دولتهم الواسعة، واكتفوا بأن أرسلوا نوابا عنهم، وظل الخليفة يعيش من الأرزاق والإقطاعات التي يقررها له السلاجقة ولم يكن له من نفوذ سوى نقش اسمه على السكة وذكره في الخطبة، واحتجت عن رعاياه، ولم يعد يظهر إلا في المناسبات العامة.

قبل أن يرحل طغرل بك إلى الري أمر بأن تحمل موارد العراق المالية إلى خزانته، بدلا من خزانة الخليفة وأتاب عنه في حكم بغداد موظفا يعرف بالعميد، وعين موظفا آخر لحفظ الأمن في بغداد يعرف بالشحنة، ووضع تحت تصرفها حامية من جنوده.

أراد طغرل بك تدعيم نفوذه السياسي بأن يتزوج بابنة الخليفة الذي فزع من ذلك الأمر، ثم اضطر في النهاية إلى الإدعاء على أن طغرل بك مات قبل أن يدخل فيها.

تولى ألب أرسلان السلطنة في سنة ٤٥٥ فبادر إلى إعادة ابنة الخليفة إلى أبيها، فأمر القائم بالخطبة له في مساجد بغداد باسم "السلطان العظيم عضد الدولة وتاج الملة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن داود". وعندما انتصر السلطان على الروم في ملازكرد لقبه "السلطان الأعظم ملك العرب والعجم ملوك الأمم".

وحين اعتزم ألب أرسلان ترشيح ولده ملكشاه وليا لعهدہ بعث إلى الخليفة بذلك فوافقه في ترشيحه، ولم يلبث أن اعتلى ملكشاه عرش أبيه في سنة ٤٦٥ وأرسل القائم إليه عهدہ بالسلطنة.

مات القائم في سنة ٤٦٧ بعد أن حكم خمسة وأربعين سنة فخلفه حفيده المقتدى بالله، وتواصلت العلاقات الطيبة بينه وبين ملكشاه، إلا أن العلاقات توترت في سنة ٤٧١، فقد طلب ملكشاه من المقتدى أن يعزل وزيره ويولى آخر رشحه هو مكانه، واستجاب الخليفة بعد تردد، ولم يلبث أن تزوج بابنة السلطان، مما أدى إلى تحسين العلاقات بينهما.

طلب ملكشاه من المقتدى أن يجعل الأمير جعفر وليا لعهدہ بدلا من أخيه وكان جعفر أبنا للخليفة من ابنة السلطان.

رفض المقتدى طلب ملكشاه فاعتزم التوجه إلى بغداد في سنة ٤٨٥ خلعه غير أنه مات قبل أن يتحقق هدفه.

بعد وفاة ملكشاه ولي ابنه محمود، وكان طفلا في الخامسة من عمره واعترف به الخليفة ولقبه ناصر الدنيا والدين.

كان لمحمود أخ أكبر منه هو بركياروق طمع في السلطنة ودارت الحرب بينه وبين أخيه وتمكن من هزيمته، ودخل بغداد في سنة ٤٨٧ ومنحه الخليفة لقب ركن الدين.

توفي المقتدى في سنة ٤٨٧ وخلفه ولده أحمد الذي تلقب بالمستظهر بالله، فجدد الاعتراف ببركياروق فلما علم تاج الدين تتش بن ألب أرسلان، وكان يلي بعض بلاد الشام بذلك ثار مطالبا بالسلطة واستولى على حلب ومدن أخرى غيرها، وأرسل إلى المستظهر يطلب الاعتراف به سلطانا فأجابه، وأمر بأن يخطب له على منابر بغداد لكنه عندما هزم على يدى بن أخيه قرب الرى في سنة ٤٨٨ وفشل، أعاد الخليفة الخطبة باسم بركياروق.

على أن الأمور لم تستقر بيدى بركياروق، فقد ثار عليه أخوه محمد صاحب أذربيجان، وأرغم الخليفة على الاعتراف به سلطانا، وبذا صار هناك سلطانان معترف بهما، وانتهى الأمر إلى اتفاق الأخوين على أن تكون المناطق الشمالية لمحمد والمناطق الجنوبية لبركياروق.

لما توفي بركياروق فى سنة ٤٩٨ خلفه ابنه ملكشاه، فقدم إلى بغداد وخلع الخليفة عليه ولقبه جلال الدولة، فأثار ذلك حفيظة السلطان محمد، فسار إلى بغداد ودخلها الغربى وخطا له بمساجد هذا الجانب، بينما كانت الخطبة فى الجانب الشرقى باسم ملكشاه، واستمر الحال على ذلك حتى عزل ملكشاه وسلمت عيناه.

عندما مات السلطان محمد فى سنة ٥١١ خلفه ولده محمود وأقيمت الخطبة له فى بغداد لكن عمه سنجر حاكم خراسان استاء لذلك وأعلن نفسه سلطانا، وبذا أصبح هناك سلطانان مرة أخرى.

انتهز الخليفة المسترشد الذى ولى سنة ٥١٢ هذه الفرصة واعتزم التخلص من النفوذ السلجوقى، وأخذ يضرب السلاجقة بعضهم ببعض فاستحال السلطان محمود ولما علم سنجر بذلك بعث إلى ابن أخيه يحذره من مغبة هذا التحالف، واقتنع محمود بنصيحة عمه وأيده فى هذا الاقتناع اتصال الخليفة بأمرء الأطراف واستعانته بهم، فاعتزم محمود المسير إلى العراق فى سنة ٥٢٠.

تأهب المسترشد لمقاتلة محمود، وكاد ينتصر عليه لولا وصول عماد الدين زنكى والى البصرة لنجدة سلطانه، فاضطر الخليفة إلى طلب الصلح، واضطر محمود أيضا إلى مغادرة بغداد عندما علم بخروج أخيه محمد عليه وذلك سنة ٥٢٥.

مات السلطان محمود بعد قليل، ونشب صراع طويل بين السلاجقة على السلطنة انتهى على أن صار مسعود بن محمد بن ملكشاه سلطانا فى سنة ٥٢٦ وأقره المسترشد.

عاود المسترشد سياسته السابقة ووصل به الأمر إلى أن قطع الخطبة لمسعود في سنة ٥٢٩، فوقت الحرب بينهما وانتهت بأسر الخليفة وحبسه في قلعة قرب همذان، فغضب أهل بغداد ومنعوا الصلاة والخطبة.

لما وجد السلطان سنجر ما أحدثه أسر الخليفة من رد فعل سيئ طلب ابن أخيه مسعود أن يعتذر للمسترشد، فوافق وتم الصلح بينهما على أن مسعودا حرض بعض الإسماعيلية على المسترشد، فقتلوه في سنة ٥٢٩ وتظاهر السلطان بالأسف لموته.

ولى الراشد بعد أبيه المسترشد، فتعهد لمسعود بأنه إذا حاول محاربته حق عليه الخلع، وتعهد أيضا بأن يؤدي إليه أربعمئة ألف دينار، لكنه تنصل من وعوده بعد ذلك بل ألب عليه حكام دولته وعلى رأسهم عماد الدين زنكى صاحب الموصل.

تغلب مسعود على هذا الحلف في سنة ٥٣٠ ودخل بغداد وأشهد الفقهاء على سوء سيره الراشد فأفتوا بخلعه، فولى مكانه عمه المقتفى، ولم يقف عند هذا الحد، بل أوعز إلى جماعة من الإسماعيلية فقتلوه في سنة ٥٣٢ مثلما قتلوا أباه قبله.

صار المقتفى مع مسعود بلا حول ولا طول، وعندما أرسل إليه هذا الأخير في سنة ٥٣١ يطلب مائة ألف دينار، كان المقتفى لا يملك غير الدار التي يقيم فيها.

٤ - زوال نفوذ السلاجقة بالعراق:

بدأت معاول الهدم تعمل عملها في دولة السلاجقة بسبب نزاعاتهم الداخلية، وفساد النظام الإقطاعي الذي أنشأه نظام الملك وزير السلطان ملكشاه، وتوطد أمر الصليبيين في بلاد الشام، وهجوم قبائل الخطا على مشرق الدولة الإسلامية وأخيرا قيام الدولة الخوارزمشاهية.

استطاع الخليفة المقتفى أن يسيطر على بغداد بعد وفاة السلطان مسعود في سنة ٥٤٧، بل أنه قطع الخطبة لابن أخيه محمد، الذي سارع إلى حصار بغداد، لكنه رفع الحصار حين علم بخروج بعض أهل بيته عليه، ولم يلبث أن مات في سنة ٥٥٤.

استقرت الحال بالمقتفى بعد زوال الخطر عن بغداد وصار أول خليفة يحكم بها مستقلا عن نفوذ السلاجقة لكنه مات في العام التالي.

خلف المستنجد أباه المقتفى وتابع سياسته في الضرب بين السلاجقة بعضهم وبعض، وعلى النحو نفسه سار ولده المستضيء عندما ولى في سنة ٥٦٦.

في سنة ٥٧٥ ولى الخلافة أبو العباس أحمد بن المستضيء وتلقب بالناصر لدين الله وخلال عهده الطويل الذي امتد نحو خمسين عاما استطاع أن يسترد بعض ما كان للخلافة من نفوذ في صدرها الأول.

في سنة ٥٧٩ استعاد الناصر من السلاجقة أربل وشهر زرو وجزيرة ابن عمر وفي سنة ٥٨٥ استعاد تكريت وأضاف إليها حديثه عانه في العام التالي.

أرسل الناصر إلى علاء الدين تكش خوارزمشاه يشكوا إليه طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة بالعراق ويحثه على قتاله ووعدته بأن يقطعه ما بيده من بلاد، فلبى تكش طلب الخليفة، والتقى جيشه بالعسكر السلجوقي قرب الرى في سنة ٥٩٠ فهزم طغرلبك واحتدت رأسه، وأهداها تكش إلى الناصر فأمر برفعها على أحد أبواب بغداد.

نتيجة لهذا النصر سيطر الخوارزميون على العراق العجمي وتقلدوه رسميا من الخليفة الذي صارت له السلطة في العراق العربي وخوزستان.

طمع الخوارزميون في أن يحلوا في بغداد محل السلاجقة فلما رفض الخليفة دارت الحرب بين الفريقين واضطر الناصر على أن يستعين على أعدائه بالغوريين الأمر الذي دعى تكش إلى التخلي عن أطماعه، ولما مات في سنة ٥٩٦ خلفه

ولده علاء الدين محمد عاود التوجه إلى غزو العراق، فلم يجد الناصر إلا أن يطلب معونة التتار.

obeikandi.com

سقوط الخلافة

العباسية

١ - التتار و جنكيز خان

٢ - التتار والدولة الخوارزمية

٣ - التتار وسقوط بغداد

obeikandi.com

سقوط الخلافة العباسية

١ - التتار وجنكيز خان:

التتار (التر) أو المغول شعب من الشعوب التى استوطنت فى أواسط آسيا، وبخاصة الأراضى الواقعة على تخوم الصين وقد عاشوا عبر العصور بدوا ينتجون مواطن الكلا فى الصحروات الأستبسية الشاسعة، شأنهم فى ذلك شأن أقربائهم من الهون الذين اشتهروا فى العصر الرومانى، والأتراك - سلاجقهم وعثمانيهم - الين اشتهروا فى العصر الإسلامى.

لم يكن العالم يعرف شيئا عن التتار حتى أذن القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) بالمغيب، فروع هذا العالم بزحف التتار غربا بسرعة لا يدانيها سوى زحف العرب بعد وفاة نبيهم الكريم. على أنه ثمة فارقا أساسيا بين الزحفين رغما عن تشبه الشعبين فى أشياء كثيرة أخصها البداوة، هذا الفارق يكمن فى نوعية الرسالة التى كانت هدف الزحف وأسلوبه فقد كانت رسالة التتار وأسلوبهم فى وقت واحد هو التدمير، التدمير فحسب.

وربما كان افتقار التتار على كل شىء عدا التدمير، هو الذى جعل فتوحاتهم تتم بسرعة مذهلة ثم تنقرض بسرعة مذهلة أيضا، والسبب فى ذلك أنهم كانوا بلا تراث ثقافى أو حضارى يطبعون به الشعوب التى حكموها، بل أنهم لم يلبثوا أن أسلموا فى معظمهم، وتحمسوا فى إسلامهم، وإن لم يتعمقوه، وقد أعان الإسلام على بقائهم، بعد انقضاء عهد قوتهم، بل أعان أيضا على بقاء بعض دولهم حتى القرن الماضى.

امتدت فتوح التتار وغزواتهم آلاف الأميال طولا، وآلاف الأميال مثلها عرضا فشملت الصين، والنصف الشمالى من الهند ونصف أوربا الشرقى وجميع العلم الإسلامى فى قارة آسيا - فيما عدا الجزيرة العربية - وكانوا على أهبة أخذ مصر نفسها.

فى سنة ١١٧٥م مات يسوجاى - زعيم إحدى قبائل التتار وخلف صببا صغيرا فى نحو الثلاثة يدعى تيموجين .

تمتع هذا الصبى بمواهب عديدة أهله لىكون زعيما لقبيلته، ثم زعيما لقبائل التتار كافة. وفى سنة ١٢٠٦/٦١٣ وكان قد بلغ مبلغ الرجولة، اجتمع زعماء التتار فى قوريتلاى - أى مؤتمر عام - وأعلن الشامان، وهو الكاهن الوثنى "أن السماء قد خلعت تيموجين لقبا أرفع من اللقب الذى كان يلقب به أسلافه وأن اسمه قد أصبح منذ ألان جنكيزخان".

تعنى جنكيزخان عند التتار الملك العظيم ذا الحلول والطول.

وضع جنكيزخان للتتار اليساق أو الياسة.

تعد اليساق دستور التتار الذى كان عرفا فحولته جنكيزخان بعد أن نظمه وأضاف إليه إلى نص مكتوب يلتزم به التتار جميعا.

نلاحظ على هذا الدستور بوجه عام:

أ - عنف لهجته التى نجعل القتل لبعض المسائل البسيطة مثل الكذب والخسارة فى التجارة وعن الأسير والسكوت عن أبى العبيد.

ب - الطاعة التامة لشخص الحاكم والانصياع لهذه الطاعة دون تفكير وعلى كل تتارى أن ينفذ ما يطلبه الحاكم حتى لو كانت مغبته حياته نفسها.

ت - على أنه يجب التعاون بين التتار بعضهم البعض ماذا وقع من أحدهم شىء وهو يحارب على صهوة جواده وجب على غيره من زملائه أن يترل ويناوله أياها.

ث - والتكافل أيضا فلا يأكل أحدهم وغيره جوعان، بل أنه يجب ألا يتميز بالشبع.

ج - وهم فيما بينهم بسطاء فى التعامل وبسطاء أيضا فى التعامل مع زعيمهم فلا ينادونه بغير اسمه مجردا.

ح - وما دامت حرب عقيدتهم، فلا بد من حرية الضمير بين بعضهم وبعض ولا يتعرض أحد منهم لمله يعتقدونها أحد آخر منهم.

خ - ولابد أيضا من أن تساهم المرأة في المجتمع بدور وافر فهي تقوم بعمل الرجل في حالة غيابه في الحرب.

د - والتتار متميزون عن المسلمين، فلا يذبحون ذبائحهم ولا يحرصون على نظافتهم الشخصية ولا نظافة ملابسهم.

ذ - ولا بأس من الميل لأبناء على بن أبي طالب، فلا يكلف أحدهم بشيء (والسبب في ذلك رغبة جنكيزخان في استثمار عناصر الفرقة بين المسلمين بعضهم البعض).

كانت تجاور بلاد التتار من ناحية الغرب دولتان تركيتان دولة الخطا وهي دولة وثنية، ودولة خوارزم، وهي دولة إسلامية تفرغت عن دولة سلاجقة فارس.

٢ - التتار والدولة الخوارزمية؛

بلغت دولة خوارزم أقصى اتساعها في عهد علاء الدين محمد خوارزم مشاه ١١٩٩/٥٩٦ - ١٢١٩/٦١٧ حتى أصبحت أقوى دولة إسلامية في المشرق، وامتدت من حدود العراق غربا إلى حدود الهند شرقا ومن شمالي البحر طبرستان (قزوین) وبحيرة خوارزم (آرال) شمالا على بحر العجم (الخليج العربي) جنوبا.

تطلع علاء الدين إلى أن يحل محل السلاجقة في العراق فلما فشل مسعاه اعتنق المذهب الشيعي، واستصدر من رجال الدين فتوى بخلع الناصر لدين الله العباسي، واختار رجلا علويا من أهل تدمر يدعى علاء الملك، وباع له خطب له أيضا من المنابر وضرب السكة باسمه.

في سنة ١٢٠٢/٦٠٦ انتصر علاء الدين على الخطأ، وفي سنة ٦١٢ أجهز على الغوريين أصحاب الهند، وافتتح الطريق أمامه على العراق.

شعر الخليفة الناصر بالخطر الذى يهدده، فكاتب جنكيزخان، ويصف المؤرخ المعاصر ابن الأثير بأنه (الطامة الكبرى التى يسفر عنها كذنب عظيم).

من الطريف أن الرسول الخليفة على جنكيزخان كان من اللازم عليه أن يعبر أراضى الدولة الخوارزمية، لذلك فيقال أنه كتبت الرسالة على رأس الرسول بعد أن حلق شعره، ثم ترك هذا الشعر لينمو، كما استظهر الرسول الرسالة لما وصل إلى خاقان التتار رد الرسالة لكى يبرهن على صحتها حلقت رأسه فقرات الرسالة على الحضور.

وصلت رسالة الناصر إلى جنكيزخان متأخرة لأن خوارزمشاه كان قد بدأ المسير بجيوشه بالفعل وأزال أتابكية فارس، أتابكية أذربيجان والتقى قرب همذان فى سنة ٦١٤ بشهاب الدين سهروردى رسول الخليفة إليه فلم يأذن الشاهنشاه بالجلوس، ولما سلم عليه لم يرد، ثم خطب سهرردى خطبة بليغة فذكر فضل بنى العباس وزهد الخليفة وورعه ودينه، فرد عليه علاء الدين "أنا أجيء وأقيم، خليفة يكون بهذه الأوصاف".

سار خوارزمشاه من همذان إلى حلوان، فحاصره الشتاء وهبت على جيشه عواصف ثلجية أهلكت كثيرا من جنوده، وتعرض الباقون لعادية الأتراك والأكراد، فأثر علاء الدين العودة من حيث أتى.

ما كاد الشاهنشاه يصل على بخارى فى سنة ٦١٥/١٢١٨، حتى وجد سفارة من جنكيزخان يطلب منه التجارة بين البلدين فوافق خوارزمشاه، وعليه بدأ الجواسيس التتار يتخفون من هيئة التجار، ويأتون مملكة خوارزمشاه يتحسسون أخبارها.

اكتشف حاكم أترار - وهو حصن يقع على أطراف الدولة - حقيقة بعض هؤلاء التجار فقتلهم، فطلب جنكيزخان من خوارزمشاه تسليمه الحاكم، وإلا فليأذن "يجرب ترخص فيها غوالى الأرواح".

كانت إجابة خوارزمشاه أن قتل رسول الخاقان .

زحفت جموع التتار الجراد المنتشر .

يقول بن الأثير الذى عاصر هذه الأحداث "لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة، واستعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك " .

فيا ليت أمى لم تلدن، وياليتنى مت قبل هذا، وكنت نسيا منسيا . . . ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا . . . هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى . . .

فلو قال قائل : "إن العالم منذ خلق الله تعالى آدم على الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . . وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة استطار شررها وعم شررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الرياح " .

اجتاحت جيوش التتار دولة خوارزم من جميع نواحيها وعندما سقطت فى يديه مدينة أترار، أمر بحاكمها فسكبت فى عينيه وأذنيه كمية من الفضة المصهورة إلى أن مات .

اقتحم جنكيزخان بخارى، ودخل جامعها صهوة جواده وحوله إلى حظيرة لخيوله وجعلها تدوس المصاحف بسنابكها، ونهب المدينة نهبا تاما ثم أحرقها، بعد أن قتل وسبى النساء والولدان وافتض جنوده البكار، وقتلوا من لا يصلح للسبى .

كرر جنكيز خان الذى وصف نفسه بـ "نقمة الله على الأرض" فعله هذا فى سمرقند وغيرها من المدائن .

بعد أن فرغ التتار من بلاد ما رواء النهر عبروا على خراسان واحترفوا

شمالي إيران حتى بلغوا الري، ففتح قاضى قضاتها الشافعى أبواب المدينة لهم من أجل أن يجهزوا على خصومه من أهل المذاهب الأخرى، فلما تم لهم ذلك أجهزوا على الشافعية أنفسهم ولم تلبث أن وصلت طلائع التتار إلى أربل شمالي العراق العربى .

عادت جيوش التتار على سمرقند، حيث عقد الخاقان الأعظم اجتماعا لكبار القادة فى سنة ١٢٢٤/٦٢١ ثم غادر المدينة إلى العاصمة قره قورم فى أعماق آسيا .

أما خوارزمشاه الذى لم يقع فى أيدي التتار، فإنه ظل طريدا مطاردا على أن لاذ بإحدى الجزر فى بحر قزوين، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة فى سنة ١٢٢٠/٦١٧ .

استقر جلال الدين منكبرى فى بلاد الهند، ثم اعتزم بعث ملك أبيه وتم له ذلك بعد أن انسحب التتار، فطلب من الخليفة الناصر إقامة الخطبة له ببغداد، ولم يجبه فاعتزم المسير إليه فى سنة ٦٢٢ وحصن الناصر بغداد وأنفق فى سبيل ذلك ألف ألف دينار، على أن جلال الدين انسحب فور وصوله تكريت عندما علم بانتفاض أذربيجان وسالم الناصر الذى مات فى العام نفسه ثم سالم ولده الظاهر وحفيده المستنصر .

حاول جلال الدين استفزاز المسلمين لحرب التتار، لكنه قبل أن يتم له ذلك، دهمه جيش تتارى ضم ثلاثين ألف مقاتل، وأخذ يطارده من بلد على آخر حتى انتهى به المطاف على قرية كردية فقتله بعض أهلها غيلة فى سنة ١٢٣١/٦٢٩ .

٣ - التتار وسقوط بغداد :

فى سنة ١٢٢٣/٦٢٤ مات جنكيزخان وصار ولده أعطى خاقانا للتتار، وقبل أقل من عشرين عاما تم له فتح بلاد الصين وكوريا فى أقصى الشرق، وأزال الدولة الخوارزمية، واجتاحت جيوشه أوربا، ودانت لها موسكو وكييف، واستولت

على المجر وبلغاريا وبولندا، وفي عام وفاة أغطاي ١٢٤١/٦٣٩ عبرت هذه الجيوش نهر الدانوب وتطرقت إلى ألمانيا نفسها.

خلف أغطاي والده كيوك ثم مانجوخان بن تولوى بن جنكيزخان ١٢٤٨/٦٤٦ - ٦٥٥ - ١٢٥٧.

فى عهد مانجوخان تسرب على قورم عدد من الركبان ومبشرين المسيحيين معظمهم صليبيون، وصرف هؤلاء جهدهم من أجل عقد حلف بين الصليبيين فى الشام وبين التتار.

كان الصليبيون يمرون فى هذه الأثناء بظروف صعبة، فقد تعثرت الحملة التى قادها القديس لويس على مصر، وبدأت قلاعهم تتساقط واحدة بعد الأخرى فى أيدي المماليك.

كان التتار فى حروبهم مع جلال الدين منكبرتي قد أوغلوا فى أطراف العراق، فدخلوا ميفارقين وقتلوا من أهلها عددا كبيرا وتابعوا سيرهم إلى الموصل فأصابوا بعض قراها، وفى سنة ١٢٣٢/٦٣٥ دخل أربل.

عندما تناهت هذه الأنباء إلى الخليفة المستنصر أرسل بعض قواته التى اشتبكت مع التتار فى معارك صغيرة سنة ١٢٣٥/٦٣٨ وكانت الغلبة فى هذه المعارك للتتار، وأسفرت عن نهبهم للجزيرة وديار بكر وميفارقين

كانت هذه الحملات الصغيرة مقدمة للحملة الكبيرة التى قادها هولاكو شقيق الخاقان.

فى سنة ١٢٥٥/٦٥٣ بدأ هولاكو حملته الكبيرة، خرج من سمرقند وعبر نهر جيحون ونزل بطوس وعقب الإسماعيلية الذين سيطروا على هذه الأنحاء، واقتحم قلعتهم الشهيرة الموتفى سنة ١٢٥٧/٦٥٥ وقتل زعيمهم ركن الدين خورشاه.

جعل هولاكو قيادته فى همذان وأرسل بعوثا من جنده فنهب ديار بكر

وميفارقين ثم أرسل إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله يطلب أن يهدم حصومه ويردم خنادقه ويحضر لمقابلته .

كان المستعصم الذى خلف أباه المستنصر فى سنة ١٢٤٢/٦٤٠ قد ألقى القيادة لوزيره علاء بن العلقمى وكان شيعيا رافضيا ينقسم على أهل السنة ما أنزلوا بالرافضة من ضرورب الهوان، وعندما هاجم السنة الكرخ - وهو معقل الرافضى ببغداد - طلب ابن العلقمى من أصحابه الكف عن القتال والصبر وقال لهم "أنا أنتقم لكم مما حدث" .

تحول ابن العلقمى إلى جاسوس لهولاكو، فصار يغرى الخليفة بقطع أرزاق الجند توفيراً للنفقات، ويحثه على مهادنة التتار، ويخفى عنه أخبارهم، وفى الوقت نفسه يكتاب الأعداء يغريهم بالفتح، ويلتمس أن يكون نائبا عنهم بالعراق .

أرسل الخليفة إلى هولاكو سفارة على رأسها شرف الدين ابن الجوزى، لم تسطع أن تثنيه عن عزمه فى أخذ بغداد، ورفض عرض سفير الخليفة فى أداء جزية سنوية، وقال "لقد قطعنا طريقا طويلا فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة أننا بعد تشرف بالمثل بين يديه، وبعبء أن نتحدث معه، سنسمع أوامره مباشرة" .

عبر التتار نهر دجلة وألحقوا بالجيش العباسى الذى كان يقوده مجاهد الدين أيك الدويدار، وحاصروا المدينة من ناحيتها الشرقية والغربية .

كان يصحب التتار فى حصارهم بغداد أمراء المسلمين، ثم سعد أتباك شيراز، وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل، كما كان يصحبهم أيضا عطا ملك الجوينى المؤرخ المشهور، ونصير الدين الطوسى الفلكى .

انصاع المستعصم لمشورة وزيره ابن العلقمى الذى اقترح عليه الخروج إلى هولاكو ومصالحته على نصف خراج العراق يؤديه كجزية .

يوم الأحد ٤ سفر ٦٥٦ / ١٠ فبراير ١٢٥٨ خرج المستعصم للقاء هولاكو ومعه أولاده الثلاثة وعدد كبير من أعيان بغداد، وقدم إليه ما مقداره ألفا ثوب وعشر

آلاف دينار غير الجواهر والنفائس، فلم يلتفت هولاءكو وأعطاهما لأمرائه ثم سأله عما لديه من ذهب مخبوء، فدلّه المستعصم عليه وكان شيئاً كثيراً.

طلب هولاءكو من الخليفة أن يأمر الناس بالكف عن القتال ففعل وما كاد يتم ذلك حتى انقض التتار يمعنون فيهم تقتيلاً حتى صار القتلى فى طرقات المدينة كالتلال وناهز عددهم المليون ونزل هولاءكو بقصر المأمونية، وأباح بغداد أسبوعاً هدم التتار فيه مساجدها وجردوا قصورها واحرقوا مكباتها وسبوا نساءها وهتكوا أعراض بناتها.

أما المستعصم وبنوه فقد وضع كلا منهم فى بساط، وأمر هولاءكو برفسهم حتى ماتوا، وسبى بناته الثلاث.

بعد ثلاثة شهور قتل الوزير ابن العلقمى.

بسقوط بغداد سقطت الخلافة العباسية التى امتد تاريخها لما يزيد على خمسة قرون، على أن سلاطين المماليك بمصر شاءوا أن يجددوا هذه الخلافة عندهم حتى يتمنى لحكمهم غطاء شرعى يرضى به المسلمون، وعلى ذلك استدعى الظاهر بيبرس الأمير أحمد وهو عم المستعصم وبايعه خليفة باسم المستنصر.

ظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر حتى أزالها العثمانيون فى سنة ٩٢٣/١٥١٧، وبقيت معطلة إلى أدعائها السلطان عبد الحميد فى سنة ١٨٧٦ فظلت فى البيت العثمانى حتى سنة ١٩٢٤.
